مقالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تأملات في آية

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾

(مترجم)

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]

الركون إلى الشيء في اللغة العربية هو الميل إليه. ومعنى الركون في هذه الآية هو الميل إلى الطغاة والموافقة على ظلمهم، وإظهار الموافقة والرضا عن حكمهم وأساليبهم، والتعبير عن موافقتهم ومداهنتهم أمامهم أو أمام الآخرين، والتعاون معهم في اقتراف الآثام ومصاحبتهم والتشبه بهم [الزمخشري، والرازي، والشوكاني]

ومن هم بالضبط الذين ظلموا؟ وهل تنطبق على المسلمين وغير المسلمين؟

قال ابن عباس: "إنه ينطبق على العموم بلا أي فرق بين مسلم أو غير مسلم، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب" [الشوكاني]

وأضاف الزمخشري: "لا يجوز الميل اليسير!" وكتب أيضًا أنّ الخليفة الموفق صلى مرة خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشي عليه، فلما أفاق قيل له، فقال: "هذا فيمن ركن إلى من ظلم، فكيف بالظالم".

زيارة الحكام

ويعطي الزمخشري هذه الآية اهتمامًا حقيقيًا، فقد نقل عن سفيان الثوري قوله: "في جهنم واد لا يسكنه إلا القرّاء الزائرون للملوك".

وقال الأوزاعي: "ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملا".

وقال محمد بن مسلمة: "الذباب على العذرة، أحسن من قارئ على باب هؤلاء".

ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في برية، هل يسقى شربة ماء؟ فقال: "لا"، فقيل له: يموت؟ فقال: "دعه يموت".

وروى الزمخشري أنه لما خالط الزهري السلاطين كتب إليه أخ له في الدين: "عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك: أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم

الله بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله سبحانه: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، واعلم أنّ أيسر ما ارتكبت وأخفّ ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوّك ممن لم يؤدّ حقاً ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قطباً تدور عليك رحى باطلهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خرّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩] فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينك فقد دخله سقم، وهيئ زادك فقد حضر السفر البعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، والسلام".

وروى الزمخشري، عن الحسن البصري قوله: "جَعَلَ اللَّهُ الدِّينَ بَيْنَ لَاءَيْنِ: وَلا تَطْغَوْا وَلا تَرْكَنُوا". أي، لا تتجاوزوا حدود الحلال وتركنوا للظلم والظالمين.

ورُوي عنه أيضًا أن خياطًا قال له: "أنا أخيط ملابس الحكام، فهل أعد ممكن يركن إلى الذين ظلموا؟"، فقال الحسن: "إنك لست ممن يركنون إلى الذين ظلموا، بل إنك واحد منهم!"

أيها المسلمون! أيها العلماء وأهل العلم!

انتبهوا! فلا تركنوا إلى الذين ظلموا بمؤازرتهم وبأقوالكم وأفعالكم. قولوا لهم قول الحق وخذوا العبرة من سلفكم الصالح.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

عبد الله حكيم